جغرافية الشريف الادريسي(١)

ان الملك رجار (Roger) النورمندي حينما آلت اليهِ مقاليد الاحكام في جزيرة صقلية رأى ما عليهِ اهلها المسلمون من الحضارة والعرفان ومكارم الاخلاق فجعل بطانتهُ منهم وتقرب اليهم رغبة في رفع منار ملكهِ على ما جرت سنة الاسلام . وقد تولع بعلم الجغرافيا وبحث في ممالكه عنْ اساطينهِ في تلك الايام . فارشدهُ المسلمون الى شريف من سلالة الادارسة الذين تملكوا مراكش وانتهى اليهم الحكم في مالقة Malaga واحوازها بجنوب الاندلس ثم دالت دولتهم وبقي نفر منهم كانوا ملوك العلماء وان كانوا قد اضاعوا التاج والصولجان وفقدوا الحكومة والسلطان

ذلك هو الشريف ابو عبد الله محمد بن محمد عبد الله بن ادريس المعروف باسم الشريف الادريسي

فاستقدمهُ رجار وبالغ في اكرامهِ والعناية بهِ ليفوز بشيء من علومهِ وليتعرف بواسطتهِ ماهية بلادهِ (صقلية) واحوالها وبلغ من اكرامهِ لهُ انهُ كان كلما دخل عليهِ هرع لاستقبالهِ عند الباب ثم اجلسهُ الى جانبهِ على سرير الملك حتى اذا ما اتم المحاضرات معهُ وافادهُ بما اراد ثم هم بالخروج شيعهُ الملك بنفسهِ الى عتبة القصر

وقد انتهى الامر بذلك الملك العاقل انهُ طلب من صاحبهِ تأليف كتاب ليعرف بهِ جغرافية بلادهِ وجغرافية المعمورة بأسرها وصنع لهُ كرة من الفضة تمثل الارض وما على سطحها من البلدان ثم صنف لهُ كتابهُ الذي كنا نسمع بهِ ولا نرى الا ترجمتهُ الفرنسية الكاملة وبعض شذرات عربية طبعها الافرنج وهي خاصة ببعض البلاد التي تهمهم مثل كلام الشريف على الاندلس فقد طبعهُ الاسبان مع ترجمتهِ الى الاسبانية ومثل كلامهِ على ايطاليا وصقلية فقد طبعهُ اثنان من افاضل الطليان ونقلاهُ الى لغتهما ايضاً . ومثل كلامهِ على فلسطين فقد طبعهُ احد علماء الالمان باللغة العربية لاحتوائهِ على البيت المقدس وما يليهِ من البقاع التي ظهرت فيها النصرانية

ثم طبع اثنان من افاضل العلماء الهولانديين قطعة من هذا الكتاب تتضمن ذكر

(١) من مقالة لاحمد زكي باشا سكرتير مجلس النظار نشرت في جريدة المؤيد في ٦ فبراير

الاندلس وبلاد الغرب ومصر والسودان وعنيا بترجمتها الى اللغة الفرنسية مع الشروح اللغوية والجغرافية الضافية الشافية

هذه خلاصة وجيزة عما اعملهُ (وهو كثير) عن هذا الكتاب الفريد الجليل

وقد كنا ابناء العرب ولا نزال الى هذا اليوم لا نعرف سوى ما سبق من القطع التي تفضل الافرنج بل تصدقوا علينا بطبعها من هذا الكتاب النفيس المكتوب بلغتنا ولفائدتنا. فانكست الاية وجاءنا النور خيلاً من الغرب ولا زلنا اذا احتجنا الى شيء من ثمراته اضطررنا لاقتطافهِ من الترجمة الفرنسية وفيها ما فيها . وفي حاجتنا وفاقتنا الى تلك الترجمة من العيب علينا والحط من كرامتنا فضلاً عن عدم امكان الوقوف على الحقائق كما هي

ولم يكن في دار الكتب الخديوية منهُ الاَّ الجزء الاول مكتوباً بخط جميل ومتضمناً للصورات (الخرط) الجغرافية ولكن فيهِ تشويهاً كثيراً وتحريفاً يجعل الفائدة منهُ قليلة . فلذلك كانت عنايتي منصرفة الى الحصول على نسخة كاملة منهُ حيثما وجدت عز يتي لجمع نفائس الكتب التي تكون اساساً لاحياء الآداب العربية بديار مصر . وقد وفقني الله لطلبتي وتحصلت على اربع نسخ كاملة منهُ . وهي الآن بدار الكتب الخديوية . ومتى حان الوقت المناسب لطبعها اخرجناها للناس اظهاراً لمجد العرب وتعريفاً للكائنين بآثارهم الخالدة التي لا ينكرها الاَّ من كان في قلبهِ مرض ولا يجحدها الاَّ الجاهل الذي يعميهِ الغرض

هذا وما وصل خبر استكثافي لهذه النسخ وحصولي عليها بالفعل الى اهل الفضل من علماء المانيا وايطاليا حتى اخذوا يتزلفون اليَّ طالبين مني ان اسمح لهم بها لكي يكون لهم الفوز بطبعها . فأجبتهم ان العمل انما هو لمصر ولفخر العرب . ولذلك لا بد من ظهوره في مصر وعلى يد المصريين الذين يقبلون بكل ارتياح موازرة اهل الفضل والعلم لهم في هذا الصنيع وسيتكاتف علماء مصر وعلماء الافرنج على اظهار هذا الاثر النفيس . وان غداً لناظرهِ قريب

اما الكتاب فعنوانهُ « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ولما كان علماء الاسلام يعرفون الفضل لذويهِ فقد كادوا يتناسون هذا العنوان ولا يذكرون هذا الكتاب الاَّ مقروناً باسم الملك الافرنجي الجليل الذي كان سبباً في تأليفهِ . فترى علماء المسلمين يذكرونهُ في مصنفاتهم باسم « كتاب رجار » اذا كانوا من اهل المشرق وباسم « كتاب اجار » اذا كانوا من المغاربة وذلك تخليداً لذكرى الملك الفاضل

ومما يحسن ذكرهُ في هذا المقام ان رجار طلب من الادريسي قبل اشتغالهِ بتأليف هذا الكتاب ان يصنع لهُ كرة تمثل الارض بما عليها وقدم للشريف كمية وافرة من الفضة الخالصة

فصنع لهُ الكرة على ما يشتهي . وقد بقي من هذا المعدن النفيس شيءٌ كثير جدًّا فتركهُ الملك لهُ ورجاهُ ان يقبلهُ دليلاً على انهُ يعرف فضلهُ

ولم يكن علم الشريف قاصراً على الجغرافية والفلك بل كان بارعًا في معرفة الطب وعقاقيره . وقد أُلف في هذا الفن كتابًا اصبح الآن معدومًا بالكلية . ولكن من يمعن النظر في مفردات ابن البيطار يعرف قيمة هذا الكتاب . فقد نقل عنهُ كثيراً في كتابهِ الباقي بين ايدينا باصلهِ العربي وبترجمتهِ الفرنسية

ولا بأس ان نذكر شيئًا من مقدمة كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق لنعرف القارىء بالغناء المستطاب الذي خلد بهِ الادريسي ذكرى رجار على مر الادهار والاعصار قال الشريف الادريسي

« افضل ما عني بهِ الناظر . واستعمل فيهِ الافكار والخواطر . ماسبق اليهِ الملك المعظم رجار المعتز بالله . المقتدر بقدرته . ملك صقلية وايطالية والكبرة (Lombardia) وقلورية (Calabria) معز امام رومية الناصر لملة النصرانية . اذ هو خير من ملك الروم بسطًا وقبضًا . وصرف الامور على ارادتهِ ابرامًا ونقضًا . ودان في ملكهِ بدين العدل . واشتمل عليهم بكنف التطول والفضل . وقام باسباب مملكتهِ احسن قيام . واجرى سنن دولتهِ على افضل نظام واجمل التئام . وافتتح البلاد شرقًا وغربًا . واذل رقاب الجبابرة من اهل ملتهِ بعداً وقربًا . بما يحويهِ من جيوش متوفرة العدد والعدد . واساطيل متكاثفة متناصرة المدد . صدق فيها الخبر الخبر . واستوى في معرفتها السمع والبصر . فاي غرض بعيد لم يصل اليهِ . ولم يخطر عليهِ . واي مرام عسير لم يحظَ بهِ ولم يتيسر لديهِ . اذ الاقدار جارية بوفاق مبتغياتهِ واراداتهِ . والسعادات خادمة لهُ ومتصرفة على اختيارهِ في حركاتهِ وسكناتهِ .

(واستمر الشريف على هذا المنوال الى ان قال)

« لما اتسعت اعمال مملكتهِ ..... احب ان يعرف كيفيات بلادهِ حقيقة ويقتلها يقينًا وخبرة . ويعلم حدودها ومسالكها برًّا وبحرًا . وفي اي اقليم هي .... مع معرفة غيرها من البلاد والاقطار ..... بطلب ما في الكتب المؤلفة في هذا الفن .... مثل كتاب العجائب للسعودي . وكتاب ابي نصر سعيد الجيهاني . وكتاب ابي القاسم عبيد ابن خرداذبه . وكتاب احمد بن عمر العذري . وكتاب ابي القاسم محمد الحوقلي البغدادي . وكتاب جاذخ ابن خاقان الكباكي . وكتاب موسى ابن قاسم القردي . وكتاب ... اليعقوبي . وكتاب اسحق بن الحسن المنجم . وكتاب قدامة البصري . وكتاب بطليوس القالوذي . وكتاب

ارسيوس الانطاكي . فلم يجد ذلك فيها مشروحاً مستوعباً مفصلاً .... فاحضر لديه العارفين بهذا الشأن ... فلم يجد عندهم اكثر مما في الكتب المذكورة فلما رآهم على مثل هذه الحال . بعث الى سائر بلاده فاحضر العارفين بها المتجولين فيها ....»

ثم اشار الادريسي الى صنع الكرة الفضة وانها عظيمة الجرم ضخمة الحجم . في وزن اربعمائة رطل بالرومي . في كل رطل منها مئة درهم واثنا عشر درهماً . وقال انها تضمنت صور الاقاليم ببلادها وافطارها وسيفها وريفها وخلجانها وبحاري مياهها ومواقع انهارها وعامرها وغامرها ... والطرقات ... والاميال ... والمسافات ... والمشاهد ... الى ان قال انهُ طلب تأليف كتاب مطابق لما في اشكالها وصورها غير انهُ يزيد عليها بوصف احوال البلاد والارضين في خلقها وبقاعها واماكنها وصورها وبحارها وجبالها وانهارها ومواتاتها ومزروعاتها وغلاتها . واجناس بنائها وضواحيها والاستعلامات التي تستعمل بها والصناعات التي تنفق فيها والتجارات التي تجلب اليها وتحمل عنها والعجائب التي تذكر عنها وتنسب اليها . وحيث هي من الاقاليم السبعة مع ذكر احوال اهلها وهيئاتهم وخلقهم ومذاهبهم وزيهم وملابسهم ولغاتهم وان يسمى هذا الكتاب بنزهة المشتاق في اختراق الآفاق . وكان ذلك في العشر الاول من يناير الموافق لشهر شوال الكائن في سنة ثمان وار بعين وخمسمائة فامتثل فيه الامر وارتسم الرسم

وعند ما جاء ذكر جزيرة صقلية قال الادريسي ما نصهُ :

« ان جزيرة صقلية فريدة الزمان فضلاً ومحاسن ووحيدة البلدان طيباً وما كن . وقديماً دخلها المتجولون من سائر الاقطار والمترددون بين المدن والامصار وكلهم اجمعوا على تفضيلها وشرف مقدارها . واعجبوا بزاهر حسنها ونطقوا بفضائل ما بها وما جمعتهُ من مفترق المحاسن وضمتهُ من خيرات المواطن »

ثم تخلص الى مدح رجار الاول بن تنقريد (Roger fils de Tancrède) ثم عاد الى مدح رجار الثاني . ثم عاد الى الكلام على الجزيرة وقال :

« فاما صقلية المقدم ذكرها فاقدارها خطيرة . واعمالها كبيرة . وبلادها كثيرة . ومحاسنها جمة . ومناقبها ضخمة . فان نحن حاولنا احصاء فضائلها عدداً . وذكرنا احوالها بلداً بلداً . عزَّ في ذلك المطلب وضاق فيهِ المسلك . لكنا نورد منها جملاً يستدل بها ويحصل على الغرض المقصود منها . ان شاء الله تعالى ! » انتهى